الحملة الفرنسية: الوعى بالتاريخ من خلال الآخر

أ. محمد إسماعيل زاهر

تربط الكثير من الأعمال الفكرية والتاريخية ما بين الحملة الفرنسية على مصر فى عام 1798 وبداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وتتكرر فى هذا السياق نظرية مؤداها أن الحملة الفرنسية أخرجت مصر من قرون الركود العثمانى والمملوكى إلى آفاق التحديث حتى أصبحت هذه النظرية من المسلمات التاريخية والفكرية لدى العديد من المثقفين[1].

وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تبنى البعض لنظرية مضادة تعتبر الحملة الفرنسية إجهاضا لمحاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى نهايات القرن الثامن عشر، وانتشرت هذه النظرية بعد أطروحة المفكر الأمريكى الماركسى بيتر جران حول هذا الموضوع والتى ظهرت فى كتاب باللغة الإنجليزية للمرة الأولى فى عام 1979 تحت عنوان: "الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840"[2].

وفى أثناء عزم وزارة الثقافة الاحتفال بمرور مائتى عام على العلاقات المصرية الفرنسية فى عام 1998 رأى البعض أن هذا الاحتفال لا يعدو أن يكون احتفالا بحملة عسكرية غازية، بينما ربط آخرون بين الاحتفال بالحملة والعدوان الأمريكى المتكرر على الأمة العربية ممثلة فى العراق، ورحب فريق ثالث بالاحتفال الثقافى مع التأكيد على رفض الغزو العسكرى بكافة أشكاله وصوره، بينما ذهب فريق رابع إلى

قبول الحملة بشقيها العسكرى والحضارى، ورأى فريق خامس أن الحملة الفرنسية هى آخر أساطير التاريخ الفرنسى وراح يعمل جاهدا على إقصاء الحملة الفرنسية بوصفها حدثًا من داخل التاريخ الفرنسى ذاته.

ولا يعبر هذا الخلاف حول الحملة الفرنسية عن مجرد احتفال أرادت أن تقيمه وزارة الثقافة، ولا يقتصر فقط على مجرد تباين فى الرؤى التاريخية بين الأكاديميين والمثقفين كما يرى البعض [3].

وفى محاولات العديد من المثقفين والباحثين للإجابة على سؤال الاختلاف حول الحملة الفرنسية وعلاقتها بتاريخ مصر الحديث والمعاصر تعددت الاجتهادات والرؤى، فذهب طارق البشرى إلى أن الاختلاف حول بدايات تاريخ مصر الحديث يخضع لتوجهات المثقف الفكرية والأيديولوجية سواء أكانت إسلامية أم علمانية أم ليبرالية [4].

ويرى السيد يسن أن هذا الخلاف نتج عن صراع محتدم بين القوى التقليدية والقوى التحديثية على مستوى العالم العربى [5]، وهو يقصد بالطبع الصراع بين التيارين الإسلامى والعلمانى حول حدود الغربى بوصفه نموذجاً معرفياً وحضارياً.

والمتابع للكتابات المختلفة حول الحملة الفرنسية يلاحظ أن الصراع الفكرى حولها لم يقتصر على الانشطار الإسلامى/ العلمانى، بل خضعت الحملة -كما سيأتى لاحقا- لرؤى ماركسية واستشراقية، بالإضافة إلى الرؤى الإسلامية والعلمانية العامة.

وامتدت هذه الرؤى الخلافية المتعددة زمنيا لتشمل الفترة السابقة على الحملة واللاحقة لها، فنجد الصراع على الفترة السابقة على الحملة من خلال تحليل ظروف المجتمع المصرى ومدى استطاعته من خلال عوامل ذاتية أن يتقدم، أو البحث وراء الجذور التاريخية التى دفعت فرنسا للتفكير فى غزو مصر.. إلخ.

وتم تجاوز الحملة إلى محمد على وهل كان يهدف إلى النهوض بمصر أم يسعى لتكوين إمبراطورية عربية؟ أو يرغب فى الحلول محل السلطان العثمانى؟ وتتم المقارنة كثيرا بين النهضة فى عهده والنهضة اليابانية فى نفس المرحلة [6]. ويعتبره البعض بغض النظر عن دوافعه مؤسسا لمصر الحديثة [7]، بينما يرى فيه آخرون "تلميذا للفرنسيس منفذا لسياسة الفرنجة" [8] ومع أخذ كل هذه الرؤى وطبيعة الخلاف بينها ووضع مقاصدها فى الاعتبار فإن الباحث لا يهتم هنا بالتأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يهدف إلى قراءة بعض الأعمال التى رصدت الحملة من زوايا متعددة، وذلك انطلاقا من فرضية مبدئية يضعها الباحث نصب عينيه وهو يقرأ هذه الأعمال. وتتلخص هذه الفرضية فى أن الحملة الفرنسية بوصفها حدثاً تاريخياً وحضارياً لا يعبر عن موقفنا الحضارى من الغرب وكيفية التعامل مع الآخر. ولا يمكن تبسيط هذا الحدث ووضعه فى سياق تاريخى يقتصر على النزاع حول بداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وإنما يفترض الباحث أن الأعمال المتابعة للحملة الفرنسية والتى سيرد ذكرها خلال المتن لاحقا قد أشارت إلى العديد من الإشكاليات الفكرية المعقدة التى أدت إلى تحول هذه الفترة المبحوثة إلى "أرابيسك" تاريخى وفكرى، مما أفرز فى النهاية حالة من التأزم العقلى العنيف تجاه الآخر "الغرب"، وحالة مماثلة من التأزم العقلى بين المثقفين بعضهم البعض "منتجو هذه النصوص".

ويبدو للمتابع للواقع الثقافى العربى بعد هزيمة 1967 أن الساحة الثقافية العربية قد شهدت تغيرات بنيوية جوهرية تركزت فى العديد من الظواهر الفكرية التى قام العديد من الباحثين برصدها، ويمكن تلخيصها فى الظواهر التالية:

1-الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر، فيرصد لويس عوض بداية الاتجاه إلى التاريخ القومى الحديث بكثافة بعد عام 1967 على النحو التالى "فقد لاحظت أن عديدين من علمائنا وباحثينا قد اتجهوا منذ 1967 إلى نبش تاريخ مصر السابق على ثورة 23 يوليو بعد أن كان هناك ما يشبه الانصراف عن دراسة أى شىء حدث قبل

1952، بل بعد أن كان ما يشبه الإدانة الضمنية والعلنية أحيانا لأى شىء حدث قبل 1952" [9]. وقد بدأ نفس الباحث فى كتابة تاريخ الفكر المصرى الحديث بعد هزيمة 5 يونيو 1967 ليعرف (ماذا جرى؟ ولماذا جرى؟ وكيف النجاة؟) [10].

2-العودة إلى الماضى: وهى ظاهرة لم تقتصر على التيار الإسلامى- وهى نظرية تعتبر من المسلمات لدى العديد من الباحثين- فالتيار الإسلامى لم ينتج مشاريع فكرية شبه متكاملة أو مترابطة عن التراث كما فعل حسين مروة فى "النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" أو أدونيس فى "الثابت والمتحول". ثم فى فترات لاحقة وإرهاصًا لهزيمة يونيو 1967 ظهرت أعمال الجابرى وحسن حنفى.. إلخ، والقائمة تطول على مستوى العالم العربى، وهى أعمال تفوق من حيث الكم أو الكيف أعمال الإسلاميين المستقلين أو المثقفين أمثال البشرى والعوا ومحمد عمارة وأحمد كمال أبو المجد وفهمى هويدى.... إلخ، مما يدل على أن ظاهرة النكوص من الحاضر إلى الماضى- بغض النظر عن الأسباب- قد أغرقت النخبة المثقفة فى عالمنا العربى.

3-الميل إلى التدين: سواء من جانب الأنظمة الحاكمة حيث عمت هذه الظاهرة الأنظمة العربية بعد الهزيمة (بل إننا يمكن ألا نستثنى نظاما عربيا واحداً لم يعتمد على المقولات الدينية) [11] أو طرح تفسيرات دينية محتواها أن الهزيمة فى الأصل كانت لابتعاد المجتمع والنظام السياسى عن الدين، وأن حل المشاكل الاجتماعية والسياسية يكمن فى العودة إلى الدين [12]، واستخدام بعض الحوادث التى تبدو خارقة وترويجها إعلاميا مثل حادثة ظهور العذراء بكنيسة الزيتون عام 1968 لامتصاص الغضب الشعبى [13] وهى الظروف التى مهدت الطريق بعد ذلك إلى مصر السبعينات وتحالف النظام مع جماعات الإسلام السياسى، بالإضافة إلى أسباب أخرى لا مجال هنا لذكرها.

4-ظاهرة جلد الذات: امتلأت الحقبة التالية لهزيمة 1967 بأعمال تقوم فى الأساس على النقد الذاتى، ويرى محمد عابد الجابرى أن الإنتاج الثقافى العربى فى الفترة التالية لهزيمة 1967 قد يبدو بأكمله جلدا عنيفا للذات العربية الجريحة[14].

ومع تحالف النظام السياسى فى مصر مع جماعات الإسلام السياسى فى السبعينات وانتشار أحداث العنف ومحاولة أسلمة المجتمع بالقوة فى الثمانينات والتسعينات بدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الإسلامى- العلمانى وأن التراثيين الجدد لا يبحثون فى التراث عن حلول لمشاكلنا الحضارية والفكرية بقدر ما يقومون بوضع مصدات دفاع تراثية أمام الإسلاميين، فعندما كتب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فى عام 1925 كان ذلك نتيجة لإلغاء الخلافة فى تركيا فى عام 1924، وردا على محاولات الكثير تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين[15]*، بينما تبدو أعمال سعيد العشماوى (كالإسلام السياسى والخلافة الإسلامية.. إلخ) ردا على جماعات الإسلام السياسى. ويمكننا من نفس المنطلق أن نخضع (تحرير المرأة) لقاسم أمين وكل الأعمال الفكرية التى شهدتها مصر فى الفترة الأخيرة حول الحجاب لهذا المنطق، وهو منطق يتسم بالتأزم العقلى- السياسى- الثقافى؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بين وقوف المثقف أمام السلطة (حالة على عبد الرازق)، ووقوفه لوجود قضية جوهرية وحيوية موجودة- قاسم أمين- ودخول تيارات ثقافية وسياسية فى تقاتل حضارى وكل منها ينفى الآخر على ساحة التراث. ولم يقتصر الأمر على الخلافة أو الحجاب بل تطور الصراع إلى مسألة الهوية* وأثيرت مرات عديدة مسألة عروبة مصر*، وبدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الثقافى ما بين تيارات ثقافية وفكرية متعددة لم تكن الحقبة الناصرية إلا فترة انقطاع مؤقت لها [16]، ولم يكن هذا الانقطاع نتيجة لإيمان هذه التيارات بأفكار المرحلة الناصرية أو نتيجة لتطورات ذاتية وفكرية شهدتها هذه التيارات بقدر ما كان نتيجة لممارسات سلطوية قامت بها السلطة الناصرية تجاه هذه التيارات- مثل اعتقال الإخوان المسلمين والشيوعيين، ثم احتواء السلطة للاتجاهات اليسارية المصرية بدءا من عام 1964 [17] ومع عدم قدرة السلطة الناصرية على الحسم الفكرى التام تجاه أى من هذه التيارات لم تستطع أيضا أن تقوم بحسم اجتماعى أو اقتصادى تام تجاه أفكارها الاشتراكية.*

ولذا عندما انهار المشروع القومى مع هزيمة 1967. عادت كل هذه التيارات

للصراع الفكرى والسياسى، وإن كان من ظروف مغايرة لما قبل 1952، ومما زاد الصراع ضراوة وجود إسرائيل بوصفها كياناً معقداً وغريباً بالنسبة للمثقف المصرى، وهو ما يرصده أحمد بهاء الدين، فإسرائيل بكيانها الاستعمارى الغريب (والذى يحمل ظلالاً شتى تبدأ من الأسطورة الدينية إلى استخدام أعقد وسائل العلم الحديث أدت إلى ردود فعل متضاربة فى العقل العربى العام، فالذين رأوا فى إسرائيل جانبها القائم على الأسطورة الدينية وجدوا أن الدفاع ضدها يكون فى الرجوع إلى الماضى، واعتبروا أن تسلل الأفكار الجديدة إلى المجتمع كان سبب الهزائم، والذين رأوا فى إسرائيل نظامها القائم على الحريات الليبرالية وتعدد الأحزاب قالوا إن الحل فى الأخذ بالليبرالية الأوروبية، والذين رأوا الأساس فى الظاهرة الإسرائيلية هو ارتباطها العضوى بالاستعمار العالمى قرروا أن الحل هو الثورة الاجتماعية الشاملة بل والثورة العالمية) [18] وهو ما فتح الساحة للصراع الفكرى بين التيارات المختلفة. وامتد هذا الصراع إلى موضوع تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهل كان مجىء الحملة إلى مصر سببا للنهوض أم انتكاسة لجذور نهضة كانت قائمة بالفعل؟

وانطلاقا من ظاهرة الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر والعودة إلى المراحل التأسيسية فيه لمعرفة لماذا انتكسنا أمام إسرائيل قام لويس عوض بنشر الجزء الأول من تاريخ الفكر المصرى الحديث فى عام 1969، ثم رد عليه من وجهة نظر مغايرة محمد جلال كشك فى كتابه و(دخلت الخيل الأزهر) فى عام 1971، ثم توالت الأعمال الخاصة بالحملة الفرنسية بعد ذلك تحمل وجهات النظر الثلاثة المعروفة، إما مؤيدة أو معارضة أو توفيقية.

ويقوم الجزء التالى من هذا البحث بعرض وجهات النظر المختلفة تجاه الحملة الفرنسية من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: الحملة الفرنسية من خلال التاريخ للنهضة العربية الحديثة

تبدأ الأعمال الفكرية العديدة التى تؤرخ للنظام الثقافى العربى الحديث عادة

بالحملة الفرنسية. وهذه الأعمال لا تؤرخ لبداية العصر الحديث فى مصر والعالم العربى بقدر ما تبحث فى التاريخ النهضوى وبداية تعرف العرب على الأفكار الغربية الحديثة.

حيث يبدأ حليم بركات المرحلة التأسيسية للنهضة العربية الحديثة على النحو التالى (يعيد الباحثون بدء النهضة عادة إلى سنة 1798 عندما غزا نابليون مصر؛ باعتبار أن هذا التاريخ يمثل المجابهة المباشرة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين الخلافة العثمانية وأوروبا الصناعية فى المشرق العربى، وبين مصر وإنكلترا، وبين المغرب العربى وفرنسا، وفى إطار هذه المواجهات عرف عصر النهضة الاحتكاك بالغرب وانتشار التعليم ونشوء الجمعيات الثقافية والحركات السياسية وبدأت تتوالى الأسئلة من مواقع مختلفة: ما هى أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليه؟ وما الداء وما الدواء؟ وكيف يكون التعامل مع الغرب وما طبيعته؟ هل نقبل على الثقافة الغربية أم نرفضها كليا أو جزئيا؟ كيف ننهض من كبوتنا ونصلح من حياتنا؟) [19].

ويطلق محمد كامل ضاهر على ما أحدثته الحملة الفرنسية فى الوعى العربى تعبير "صدمة الحداثة" [20] وهذه الصدمة أفاقت الإنسان العربى من سباته الطويل (منذ قرنين من الزمان تقريبا بدأ الإنسان العربى يستيقظ من سبات عميق إثر اصطدامه بحضارة عالم جديدة لا تمت إلى مفاهيمه عن الكون والحياة بشىء) [21].

وبعد أن يقارن أدونيس بين النهايات المختلفة للفترة السابقة على ما سمى بالنهضة العربية الحديثة والتى أطلق عليها (الفترة المظلمة) [22] والتى يحصرها فى الفترة من سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 1258 حتى سنة 1798 أو فى أواخر القرن التاسع عشر أو فى إعادة الدستور العثمانى فى عام 1908 أو بانتهاء الحرب العالمية الأولى 1918[23] ثم يختار أدونيس عام 1798 لنهاية الفترة المظلمة وبداية عصر النهضة حيث (لم يؤثر الحضور الفرنسى فى طراز التفكير وحسب وإنما أثر كذلك فى طراز الحياة) [24].

ويبرز ماهر الشريف دور الحملة الفرنسية فى إدراك العرب لمدى تخلفهم فقد (ظهرت إشكالية النهضة العربية فى مطلع القرن التاسع عشر بعد أن بدأ العرب والمسلمون يتملكون الوعى بتخلفهم، ويدركون حاجتهم إلى النهوض بعد عصور طويلة من الانحطاط. ولقد لعب الاحتكاك المباشر بالغرب دورا رئيسيا فى ظهور هذه الإشكالية) [25]. ويعرف نفس الباحث خطاب عصر النهضة (بأنه النص الذى أنتجه المثقف العربى الحديث الذى راح يظهر منذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر إثر صدمة الاحتكاك بالغرب وإدراك طبيعة الفرق بين التأخر والتقدم)[26]. وعلى الرغم من عودة ألبرت حورانى إلى بدايات القرن الثامن عشر كأول محاولة تجرى فى الدولة العثمانية للإصلاح على أساس عسكرى غربى [27]. ثم يعدد الباحث محاولات الإصلاح العثمانية طوال القرن الثامن عشر إلا أن تأريخه للفكر العربى يبدأ من عام 1798[28].

ويؤكد محمد عابد الجابرى على الأبعاد المختلفة للحملة الفرنسية على مصر من خلال رؤية كلية لأوضاع مصر والحداثة الأوروبية آنذاك (لقد نقلت حملة نابليون معها إلى مصر الدعائم الثلاثة التى قامت عليها الحداثة الأوروبية: القوة والمنافسة والمعرفة. وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوى العربى قلنا إنها: التوسع الاستعمارى، والتنافس الأوروبى الإنجليزى-الفرنسى، والفكر التحديثى) [29].

تقوم هذه الأعمال إذن على التأريخ للنهضة العربية الحديثة وتبدأ هذه الأعمال بالحملة الفرنسية كبداية لهذه النهضة ولا تتطرق إلى أحداث الحملة الفرنسية أو ظروف المجتمع المصرى قبل وأثناء الحملة، بل هى تضع عام دخول نابليون إلى مصر "1798" كعلامة فارقة على بدء النهضة الحديثة وكتاريخ حاسم وفاصل بين عالمين، الأول يمثل فترات الظلام والآخر يعبر عن التحديث والنهوض، وذلك من خلال عملية جدلية تشمل التحديثات التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر، ووعى المصريين بمدى تخلفهم إزاء الحضارة الوافدة. وعلى الرغم من تطرق بعض هذه

الأعمال إلى محاولات الإصلاح التى تمت داخل القرن الثامن عشر ورصدها للعلاقة مع الغرب قبل الحملة من خلال المدارس أو الإرساليات أو المطابع.. إلخ [30]، فإنها تصر على الصدمة العسكرية والحضارية التى أحدثتها حملة نابليون كبداية للنهضة الحديثة.

والملاحظة الأساسية على هذه الأعمال وغيرها أنها لم تكتف بحملة نابليون كعام لميلاد النهضة العربية الحديثة، ولكنها حددت نهايات هذه النهضة بأعوام تبدو فى أغلبها مرتبطة بأحداث غربية ذات تأثيرات مهمة فى العالم العربى، فعصر النهضة ينتهى عند حليم بركات فى عام 1914 [31] وعند ألبرت حورانى فى عام 1939[32] أما محمد جابر الأنصارى فيختار عام 1930 لنهاية عصر النهضة العربى [33] ويحدد على المحافظة عام 1914 لنفس النهاية [34].

ويرتبط عام 1914 ببداية الحرب العالمية الأولى، وعام 1939 ببداية الحرب العالمية الثانية، وعام 1930 بالضائقة الاقتصادية التى شهدها الغرب فى الثلاثينات. وعلى الرغم من انعكاس هذه الأحداث على العالم العربى بتأثيرات مختلفة ومهمة فى المجالات الثقافية والسياسية المتعددة فإنها تبقى أحداثا ذات دلالتين:

الأولى: أنها أحداث صنعها الآخر الحضارى فى الأساس، ووضعها بوصفها علامات فارقة فى التاريخ الفكرى العربى الحديث يمثل تبعية ثقافية شبه مطلقة للغرب.

الثانية: أن هذه التواريخ تمثل هزائم حضارية وسياسية وعسكرية أمام الآخر، والتأكيد عليها وتكرارها ووضعها كمحطات أساسية وفارقة فى النظام الثقافى العربى- إن جاز هذا التعبير- يضخم من ظاهرة جلد الذات.

ومن داخل هذه الأعمال- ما أورده الباحث عينة ممثلة ولكنه يعتقد أنها تنطبق على الغالبية العظمى من الأعمال المؤرخة للنظام الثقافى العربى- يتم القفز سريعا على أحداث قد تبدو مرتبطة أكثر بنضال المجتمع المصرى والعربى فيتم التأكيد على عام 1914 وتجاهل، أو شبه تجاهل، عام 1919 فى التاريخ النهضوى وليس

السياسى، وفى الإطار المتقدم زمنيا يتم الإغراق فى هزيمة 1967 وتجاهل حرب أكتوبر 1973، وحتى وإن كانت الانتصارات التى حققتها الذات محدودة ولم يتم تحقيق الاستفادة الكاملة منها فإن الإجماع على الهزائم الحضارية والسياسية بصورة متكررة يخلق دائرة شبه مغلقة لا فكاك للذات العربية منها.

المحور الثانى: الحملة الفرنسية من منظور الوعى التاريخى

يقوم هذا المحور على عرض وجهتى النظر الخاصتين بالموقف من الحملة الفرنسية من خلال استعراض الخلاف على أحداث وشخصيات مهمة من داخل هذا الحدث التاريخى، وتعتبر وجهة النظر الأولى الحملة الفرنسية بداية تاريخ مصر الحديث، بينما ترى الأخرى أن الحملة أجهضت محاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى أواخر القرن الثامن عشر. وهناك وجهة نظر ثالثة حاولت أن تتوسط الرؤيتين السابقتين فتقبل الشق الحضارى من الحملة وترفض وجهها العسكرى.

أولا: الحملة الفرنسية كبداية لتاريخ مصر الحديث:

يعتبر الجزء الأول من كتاب تاريخ الفكر المصرى الحديث [35] من أوائل الأعمال الفكرية بعد الهزيمة فى يونيو 1967، والتى رجعت لتنقب وتبحث فى التاريخ الحديث، إذ صدر هذا الجزء كتابًا فى عام 1969.

وتتشكل رؤية الكاتب للحملة الفرنسية من خلال رؤيته لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية، ولما استحدثه الفرنسيون فى مصر، وموقفه من عدة شخصيات مثل بونابرت وسليمان الحلبى.

فى البداية يركز لويس عوض على ثورة همام أمير الصعيد والتى بدأت فى عام 1736 [36]، وتنبع أهمية هذه الثورة من أهدافها الوطنية والاجتماعية، إذ كانت تهدف إلى استقلال مصر واستخلاصها من أيدى المماليك. وأما الهدف الاجتماعى فيتلخص فى تمليك الأرض للمصريين وتوزيعها على الفلاحين [37] وعلى مدى العديد من الصفحات يسعى الكاتب جاهدا إلى إثبات أن ثورة همام كانت تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث [38].

ويعتبر نفس الكاتب فى مكان آخر أن حجة عام 1795 والتى كتبها الوالى والمماليك لبيان الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية خطوة نحو تبلور فكرة الدستور [39].

إذن يتم الانطلاق هنا من بعد وطنى يسعى إلى التأكيد على الثورات والهبات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية مع التركيز على البعد الاقتصادى الاجتماعى.

ويرى لويس عوض أن الحملة الفرنسية (كانت الحد الفاصل بين عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم وسيط يمتد بطول العصر التركى المملوكى منتهيا فى عام 1798 فيه عدد من الثورات الاقتصادية البحتة التى لم تخرج عن أو يخرج عنها أى فكر سياسى أو اجتماعى أو ثقافى معروف. وعالم لم تحدث فيه أية حركة إلا وكانت مقترنة بمذهب سياسى واضح أو بأيديولوجيا اجتماعية واضحة أو بتيار ثقافى واضح أيّاً كان اتجاهه) [40].

ومن هذا المنطلق تصبح حملة بونابرت على مصر هى المفجر الأساسى لبناء هيكل الدولة على الطراز الحديث، والسبب المباشر فى التطورات الاقتصادية والمادية التى استجدت على مصر نتيجة لتصفية الإقطاع التركى المملوكى أثناء الحملة، والتطورات الاجتماعية التى استجدت فى مصر من خلال الأدب والصحافة ونشأة التيارات الفكرية والأدبية فيما بعد [41].

أما البيان الذى أرسله نابليون ليوزع فى الإسكندرية قبل وأثناء دخوله إليها فقد أدى إلى (تغذية الروح القومية المصرية وإقناع المصرى بالثورة على المماليك ثم الانفصال عن الباب العالى) [42].

وبعد دخول نابليون إلى القاهرة يقوم بتشكيل أول وزارة مصرية [43] تم إنشاء أول برلمان مصرى عرف يومئذ بالديوان العام [44]، وقد أدى هذا التجديد فى نظام الحكم كما يرى لويس عوض إلى ثلاث نتائج رئيسية:

1-أن الشعب المصرى من خلال الاعتراف الشكلى أو القانونى أو الدستورى

بحقوقه المغتصبة خلال فترات الحكم التركى- المملوكى قد أدرك أنه صاحب الحق الأول فى حكم بلاده [45].

2-أن الحكومة المصرية التى أقامها الفرنسيون كانت بمثابة تدريب أولى للمصريين على تقلد السلطة ومسئولياتها.

3-أن الحكم المصرى استطاع أن يستخلص للمصريين الكثير من مصالحهم الضائعة، وأن يحل لهم الكثير من مشكلاتهم المعلقة فى الدوائر التى كانت لا تتعارض أو لا تتداخل مع مصالح الفرنسيين [46].

وبالنسبة لنابليون يرى لويس عوض أنه الرجل الذى (جاء ومن ورائه رصيد ضخم من مبادئ الثورة الفرنسية فكان فى استطاعته أن ينادى بلا تحفظ بتصفية الإقطاع أو الالتزام الملوكى وإلغاء الامتيازات الطبقية بل وإلغاء الفوارق بين الطبقات) [47] ويتم وصفه بـ (رجل الأقدار الذى يقع على يديه ذلك التغيير العظيم)[48].

ويتوقف لويس عوض طويلا أمام القوانين التى طبقها الفرنسيون فى مصر والمحاكمة التى أجروها لسليمان الحلبى باعتباره حدثا لم تشهده مصر طوال العصر التركى- المملوكى- المحاكمات القانونية- ويتم وصف سليمان الحلبى (بقاتل كليبر) [49].

أما بالنسبة للجبرتى بوصفه مؤرخاً عاصر الحملة الفرنسية ومصدرًا اعتمد عليه لويس عوض فهو يراه متفتحا فى المواقف التى أعجب فيها بالحضارة الفرنسية [50]. وينقده فى أحيان أخرى مثل موقفه من سلوك بعض النساء مع جنود الحملة الفرنسية، ويرثى له فى المواقف التى يعبر فيها الجبرتى عن دهشته بقيام الفرنسيين بغزو مصر وانكسار المماليك أمامهم [51].

أما بالنسبة لعدة أحداث خلافية مثل ثورة القاهرة الأولى وأسبابها فهو يرى أن أسباب الثورة جاءت نتيجة لتعطيل أعمال واجتماعات أول برلمان عرفته البلاد فى 20

أكتوبر 1798 وليس لمجرد الاحتجاج على فرض الضرائب العقارية ورسوم الشهر العقارى والقروض الإجبارية [52] ونتيجة لهذه الثورة أصدر نابليون مرسوم 21 ديسمبر 1798 والخاص بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو (البرلمان ومجلس الوزراء) [53].

وتتـم المقـارنة ما بين هذا المرسوم ودستور 1923 والذى جاء كنتيجة لثورة 1919 [54].

ويصبح عام 1800 كما يرى الكاتب هو عام تحرير المرأة المصرية والذى جاء كنتيجة لمخالطة (المصريات للفرنسيين) [55].

وفى عام 1999 صدر كتاب مصر والحملة الفرنسية لمحمد سعيد العشماوى[56]. وعلى العكس من الرؤية السابقة والتى سعت إلى إبراز الهبات والثورات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية فإن هذه الدراسة تذهب بعد عرض ملخص لمساوئ الحكم التركى- المملوكى إلى نتيجة مؤداها (أن مصر لم تكن لها حكومة ولا شريعة ولا نظام ولا عدل ولا أمن فى ذلك العهد الفاسد من حكم العثمانيين سنة1517 حتى تاريخ بداية الحملة الفرنسية) [57]. وبعد استعراض آخر لأوضاع المجتمع وحياة الشعب يصل نفس المؤلف إلى نتيجة مقاربة للنتيجة الأولى (تلك صور، تكاد تنطق بما فيها من بساطة التعبير وسلامة القول وبراءة القصد- يقصد استعراض الجبرتى لأحوال مصر قبل الحملة- ومنها يظهر بوضوح وجلاء أنه لم يكن يوجد شعب بالمعنى الحقيقى أو مجتمع بالوصف الصحيح أو حكومة بالمعايير المعتبرة، إنما توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة وقادة طغاة مستبدون، والكل على جهالة وبطالة وعماء وغشومة، وأنانية وعدوانية) [58].

وعن العلاقة بين المصريين والفرنسيين أثناء الحملة يرى الكاتب أن الألفة والمحبة جمعت بينهما حيث {قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة}[59]. وكان الفرنسيون (يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون إلى حالهم دون ضجيج أو عدوان) [60].

ويذهب المؤلف إلى إعجابه بما أقامه الفرنسيون فى مصر من مدافن ومتنزهات، بالإضافة إلى المجمع العلمى والديوان.. إلخ [61].

أما عن أسباب ثورة القاهرة الأولى فعلى العكس من رؤية لويس عوض لأسبابها يرى العشماوى أنها قامت بسبب فرض الضرائب والعوائد على العقارات والتجارة [62] ويقارن ما بين أسلوب الجمع الفرنسى للضرائب وهو الأسلوب القانونى المنظم [63] وأسلوب جمع الأتراك لها وهو أسلوب (همجى) [64] ويستند إلى وصف الجبرتى لمن قام بهذه الثورة على النحو التالى {جماعة من العامة ووافقهم بعض المتعممين الذين لم يصفهم الجبرتى بأنهم شيوخ وانضم إليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئو الخلق قليلو الخبرة) بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم} [65].

ويستند المؤلف كثيرا لأوصاف الجبرتى حول الطبقات الشعبية حيث يصفهم (بالعامة والأوباش والحشرات) [66].

وبعد أن يستعرض المؤلف محاكمة سليمان الحلبى يصفه بقاتل كليبر وبأنه (ليس بطلا وطنيا أو مجاهداً مسلما) [67].

وتتم المقارنة كثيرا بين الحكم التركى الفرنسى وبيان تفوق الثانى وإنسانيته على الأول بمراحل ويتكرر كثيرا- فى أنحاء متفرقة من الكتاب- السؤال عن أسباب ثورة المصريين على الحكم الفرنسى، ويتم الخروج بنتيجة مؤداها أن من قام بالثورة من المصريين قلة من العوام والغوغاء، أما بقية المصريين فكانوا يعيشون فى مودة وسلام مع الفرنسيين، وقد أقام الفرنسيون العديد من الإصلاحات فى مصر بعكس الأتراك الذين أهملوا مصر (كل هذا الإهمال واستبعدوا أهلها ولم يضبطوا فيها الأعمال الإدارية ولا أقاموا أى إنشاءات مادية) [68]. وبالنسبة لأحوال مصر بعد خروج الحملة فقد عادت إلى أسوأ مما كانت عليه قبل مقدم الحملة [69].

تتفق الرؤيتان السابقتان فى التأكيد على أن النهضة العربية الحديثة قد بدأت مع مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام 1798، وإن كان لويس عوض بحث فى ثورة

همام أمير الصعيد لينقب عن نقطة البداية فى الصراعات الوطنية والطبقية من خلال رصد هبات الجماهير ضد الولاة العثمانيين وبكوات المماليك [70]، أما سعيد العشماوى فيعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية فترة مظلمة أشبه ما تكون بالعصور الأوروبية المظلمة. وانطلاقا من أن الكتابة فى التاريخ لا تتسم بالحياد أو البراءة تحول هذان العملان من التاريخ إلى الإيديولوجية أو إلى أدلجة مفرطة للتاريخ، فبعد أن يتحدث لويس عوض عن ثورة القاهرة الأولى يقارن بينها وبين ثورة 1919 (بهذا المعنى نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن ثورة القاهرة الأولى قد أسفرت عن انتصارات ديمقراطية محققة، وإذا أمكن أن نسمى مرسوم 21 ديسمبر 1798 بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو البرلمان ومجلس الوزراء دستور 21 ديسمبر 1798 استطعنا أن نقول إن ثورة 1798 على بونابرت أسفرت عن دستور سنة 1798 بمثل ما أسفرت ثورة 1919 عن دستور 1923 مع الاختلاف طبعا فى الظروف وفى أبعاد الفكرة الديمقراطية وبمثل ما أسفرت ثورة 1882 عن دستور 1882 المجهض) [71].

ومع اعتبار ثورة القاهرة الأولى ثورة شعبية وثورة 1919 ثورة شعبية بالمثل ينحى المؤلف من التاريخ إمكانية نجاح الثورات العسكرية، 1882 وربما أيضا 1952، فعام تأليف الكتاب لم يكن يسمح للمؤلف أن يقولها صراحة خاصة وهو محمل بإحساس الهزيمة (منذ أن دخلنا امتحان 5 يونيو بدأ عديد من الكتاب فى استقصاء الأسباب والنتائج) [72] والولاء للثورات الشعبية يؤيده المسكوت عنه فى حديث لويس عوض الطويل عن "الوفد المصرى" الذى تشكل برئاسة المعلم يعقوب، والذى كان يسعى لاستقلال مصر أثناء الحملة الفرنسية [73].

وما سكت عنه لويس عوض عام 1969 أفصح عنه سعيد العشماوى بكل صراحة فى عام 1999، فهو يقارن بين انكسار المماليك أمام الفرنسيين وانكسار الجيوش العربية أمام إسرائيل فى عام 1948، ثم الانكسار العسكرى فى عام 1956، ثم الانكسار فيما يشبه جلدا للذات فى عام 1967 [74].

وهناك إشكالية أخرى تثيرها قراءة لويس عوض لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية وهى إشكالية البحث عن الغرب فى التاريخ، حيث يتم اعتبار ثورة همام تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث وهى إشكالية كامنة فى أغلبية إن لم يكن كل أعمال التراثيين الجدد، فترتبط المعتزلة بالعقلانية والقرامطة بالتقدمية والاشتراكية والخوارج بالثورية.. إلخ. وهذه الإشكالية فضلا عن أنها تفصل ثوبا من التراث على المقاييس الغربية فهى تربط الذات بالآخر ربطاً لا فكاك منه.

ثم هناك أيضا إشكالية تحميل النصوص بمفاهيم ودلالات أكثر مما تحتمل هذه النصوص، مثل: الحديث عن الروح القومية المصرية*، ونشأة الفكرة الديمقراطية[75] ونشأة الوزارة الأولى والبرلمان الأول والدستور الأول.. إلخ.

وهناك ظاهرة أخرى أثارها كتاب سعيد العشماوى وهى ظاهرة التعالى إن لم يكن احتقار الناس، حيث التأكيد من خلال فقرات مطولة داخل الكتاب واستنادا إلى الجبرتى على عبارات العوام والحشرات والزعر وسفلة الأسافل.. إلخ، مع رفض أى مقاومة يبديها هؤلاء فى مقاومة الغزو العسكرى.

ثانيا: الحملة الفرنسية وإجهاض محاولات التحديث الذاتية:

تنطلق هذه الرؤية من مقولات ووجهات نظر تتناقض كليا مع أطروحات الرؤية السابقة بل تتهم هذه الرؤية أصحاب الرؤية السابقة بالدعوة إلى التغريبية حيث يرى جلال كشك فى كتابه ودخلت الخيل الأزهر [76] أن الرؤية الخاصة التى تعتبر الحملة الفرنسية بداية تحديث ونهوض مصر رؤية تغريبية تربط الغرب بالتحديث، أما التحديث الحقيقى فيكون فى التمسك بالذات ورفض التغريب واتباع النموذج اليابانى فى التحديث [77]. ويصف جلال كشك من يتبنى هذه الرؤية بأنه من أتباع (المدرسة الاستعمارية فى تفسيرها للتاريخ) [78].

ويسعى جلال كشك فى البداية إلى إثبات أن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية غارقة فى ظلمات العصور الوسطى، ويعتمد فى ذلك على عدة مظاهر مثل استيلاء بكوات المماليك على السلطة فى مصر منذ منتصف القرن السابع عشر [79] وتناقص الجزية

التى كانت تدفعها مصر إلى تركيا فى هذه الفترة [80]، بالإضافة إلى تحول الباشا التركى إلى ألعوبة فى أيدى بكوات المماليك حتى وصل الأمر بالمماليك إلى قتل وطرد وتجريس الولاة [81] ولم يتبق من سيادة تركية على مصر إلا الولاء الأسمى والمتمثل فى الدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة [82].

أما إثبات أن مصر لم تكن غارقة فى ظلمات العصور الوسطى فيسعى كشك إلى إثباتها على مدى فصل كامل، فمصر لم تشهد قبل الحملة نهضة فى العلوم الشرعية الدينية فقط وإنما يتم التأكيد على وجود علوم مادية تنفى (الصورة الهزلية التى يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس)[83].

حيث شهدت مصر فى تلك الفترة شيوخا يهتمون بدراسة الفلك والكيمياء والرياضيات [84] ويعتمد على واقعة (مثيرة) [85] أوردها الجبرتى (وهى حضور بعض طلبة الإفرنج أى من الأوروبيين وربما من الفرنسيين بالذات إلى القاهرة حيث درسوا على الشيخ الجبرتى الكبير وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية، بل ويعتقد الجبرتى أن هذه المعلومات التى تلقوها من والده كانت الأساس فى التطبيقات أو الإنجازات التكنولوجية التى تحققت فى أوروبا)[86]. وبعد ذلك تتعارض رؤية كشك طوال العمل مع رؤية لويس عوض، فالمؤسسات التى أقامها نابليون فى مصر يتم وصفها بالمؤسسات الاستعمارية [87] والديوان (ليس أكثر من جهاز لجمع الضرائب والغرامات) [88] والحكم الفرنسى بصفة عامة حكم استعمارى يعتمد على (القانون الاستعمارى) [89]. أما ثورة القاهرة فقد نشبت نتيجة للإحساس الوطنى وليس تمردا على (إصلاحات الفرنسيين)[90]. ولم تبدأ الثورة كذلك بسبب الضرائب (فكما يعترف هيرولد نفسه إن الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون الضرائب)[91]، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية السبب فى قيام الثورة فقد شهدت هذه الفترة انخفاضا ملحوظا فى الأسعار [92].

فالثورة كما يراها جلال كشك قامت لسبب رئيسى وهو (التناقض بين الشعوب والاستعمار)[93]، ثم يستمر كشك فى رفض رؤية لويس عوض فعام 1800 كما يراه

كشك هو عام تحرير المرأة (من تحت الزنار) [94] وبالنسبة لنابليون فهو عند كشك دجال وهناك فصل كامل بعنوان (الدجال يدخل القاهرة)[95].

ويعقد نفس المؤلف فصلا كاملا لمحاكمة سليمان الحلبى ويتم وصفه بـ (شهيد الإسلام وشهيد العروبة وشهيد مصر) [96] تمشيا مع إهداء الكتاب (إلى سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر) [97] .

أما مصطفى عبد الغنى فبالإضافة إلى إهداء كتابه إلى سليمان الحلبى يزيد فى الإهداء أطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى وشهداء الحملة الأمريكية [98].

وتنطلق رؤية المؤلف من المقارنة بين الحملة الفرنسية بوصفها استعمارية بحتة لا علاقة لها بالتحديث حيث (إنها لم تأت إلى مصر الغائبة) [99] والحملة الأمريكية والهجوم الأمريكى المتكرر على العراق، ويتم تشبيه بوش بنابليون (مع تغير الظروف)[100]. ويرى الكاتب أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة (صليبية ثامنة) [101].

وبالنسبة لمصر قبل الحملة فإن المؤلف يرى أن النصف الأخير من القرن الثامن عشر قد اشتمل على ممهدات للتطور العربى (فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكرى لنا، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة وقبل أن تأتى الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربى) [102] .

ثم يعدد المؤلف فى عدة صفحات أسماء العلوم التى شهدت نهضة فى تلك الفترة مثل الفلك والطب والرياضيات... إلخ فهذه الفترة قد شهدت (تيار التجديد الفكرى فى مجالات أخرى كثيرة، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة) [103] .

ويرى مصطفى عبد الغنى أن الغرب عنصرى وأن الحملة جاءت فى إطارين هما العولمة التى تقوم بها أمريكا الآن، والقيام بعبء الرجل الأبيض فى تمدين العالم

واستمرارا للدور الفرنسى ثم الإنجليزى فيما بعد[104]، وفى رأيه أن كتاب "وصف مصر" حمل رؤى استشراقية عنصرية ولا يعدو أن يكون وصفا لفرنسا وليس وصفا لمصر[105].

ويعتبر المؤلف الحملة بداية نكبات مصر فى العصر الحديث ويربط ما بين نابليون والغرب من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، إذ سمح الصراع الدولى والذى بدأه نابليون على هذه المنطقة بزرع إسرائيل فيما بعد[106] وبالنسبة للمقاومة التى شهدتها الحملة والمتمثلة فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية فقد كانت بسبب شراسة جنود الحملة ضد المصريين[107] ويذهب المؤلف فى نهاية كتابه إلى عدم وجود آفاق مشتركة بين مصر والعرب عامة وفرنسا وحضارة الغرب[108].

وهناك شخصيات اتسمت بأوصاف سلبية فى هذا العمل، كل من يرى أن الحملة قد أثرت بالإيجاب فى التطور العربى يتبع المدرسة الاستشراقية فى التاريخ[109]، والغريب أن يعتبر المؤلف أن لويس عوض من الذين عارضوا الحملة[110]، ويصف نابليون بأنه (أبو العولمة)[111].

ويعتمد المؤلف فى مصادره على الجبرتى وليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، ونللى حنا فى تجار القاهرة فى العصر العثمانى وبيتر جران فى الجذور الإسلامية للرأسمالية[112].

ويتبقى من هذا العرض إشارة المؤلف إلى السبب المباشر الذى جعله يتخذ هذا الموقف المعارض للحملة الفرنسية، ويتلخص هذا السبب فى الهجوم المتوالى على الأمة العربية والإسلامية، وهو الأمر الذى جعل المؤلف ينصرف عن الجدل الثقافى الدائر حول الحملة المؤيد/ المعارض وينتمى إلى الرأى العام (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى)[113]. فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام، معارضاً للسائد والمتخلف)[114].

وتقوم رؤية ليلى عنان للحملة الفرنسية على إقصاء هذه الحملة من التاريخ الفرنسى والثقافة الفرنسية ذاتها باعتبارها آخر أساطير هذه الثقافة[115] حيث تهدف

المؤلفة إلى (دراسة أسطورة الحملة على مصر عند الفرنسيين أنفسهم، نشأتها، وتطورها، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بينهم) [116] وتعتمد المؤلفة على المصادر الفرنسية فى الأغلب (ولذا كان على الدراسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعدها والتى لن تلجأ بطبيعة الحال إلى الكتب العربية إلا للضرورة القصوى) [117] ولا تهتم هذه الدراسة بالدرجة الأولى بإبراز أحداث الحملة بقدر ما تسعى إلى التأصيل لفكرتها فى التاريخ الفرنسى وفى الأدب وعند المؤرخين، ولذا يقسم الجزء الأول من الدراسة إلى فصول بهذه العناوين: الحملة فى تاريخ الثورة، نابليون بونابرت الجنرال والإمبراطور، أسس أسطورة الحملة ونابليون، الأسطورة عند الأدباء، الأسطورة عند المؤرخين. وفى الجزء الثانى من الدراسة تتابع المؤلفة أحداث الحملة على مصر من خلال الاعتماد على المصادر الفرنسية التى أرخت للحملة وذلك استخداما لأسلوب وشهد شاهد من أهلها والتى تجعله المؤلفة عنوانا لأحد فصولها (شاهد من أهلها المعاصرين). [118] وتستمر المؤلفة فى نقد وتحليل الحملة من خلال وجهة النظر الغربية حتى تصل إلى النتيجة التالية فى نهاية كتابها (انهارت صورة الأمريكى الطيب كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية. إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل "تحطيم الأساطير" فأتى على أسطورة "الثورة الكبرى" ورسالتها السلمية العالمية). [119] .

ويلاحظ أن المؤلفة لم تعتمد على الجبرتى، بعكس الدراسات السابقة إلا للضرورة القصوى، وترجع ذلك إلى سببين:

يتمثل الأول فى أمانة الجبرتى كمؤرخ (وهى سلاح ذو حدين لأنه لم يرو إلا ما كان متأكدا منه، أو واثقا كل الثقة بمصدره ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى) [120].

أما السبب الآخر فهو أن الجبرتى (مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين كان ذاتيا فى كتابته: جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة على أحكامه التى توصف أحيانا بأنها غير وطنية فتحولت عند قرائه إلى رؤية المصريين كلهم) [121].

تحمل هذه الرؤية هى الأخرى العديد من إشكاليات وظواهر وعيوب الخطاب العربى الحديث والمعاصر.

أول هذه الظواهر هى ظاهرة التخوين والتكفير التى تشيع فى الخطاب العربى المعاصر مؤخرا، وهى تنطلق من الرؤية الإسلامية/ العلمانية الانشطارية. فجلال كشك يصف لويس عوض بأنه عميل المدرسة الاستعمارية فى تفسير التاريخ، وبعد أكثر من ربع قرن يصف مصطفى عبد الغنى وجهه النظر المؤيدة للحملة الفرنسية بأنها تتبع وجهة النظر الاستشراقية، وهى عبارات واصطلاحات تدخل فى قاموس الصور الذهنية المتبادلة بين الإسلاميين والعلمانيين وتمتلئ بها كتبهم وتعبر عن النفى الفكرى للآخر من خلال استخدام أعز ما يملكه القارئ وهو الدين/ الوطن.

الظاهرة الثانية هى الإسقاط التاريخى والرغبة فى الحياة داخل ماض لن يستعاد أبدا حتى لو أدى ذلك إلى تضخيم الماضى بصورة لا تاريخية، فمصطفى عبد الغنى يعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية أخصب فترات تاريخنا، وهو رأى يجافى التاريخ، ويعترض عليه أبسط قارئ لأى تأريخ تراثى تناول هذه الفترة من أمثال ابن إياس الحنفى أو عبد الرحمن الجبرتى.

أما الإشكالية الأساسية التى تثيرها هذه الأعمال فهى إشكالية الموقف من الغرب ولا أقصد الموقف العسكرى وإنما الموقف الحضارى وموقفها من رفض الغرب واضح من خلال كتابات هذه الرؤى، وإنما تشتمل هذه الرؤى على آليات فكرية تضخم هذه الإشكالية وتضيف إليها أبعادًا مركبة بحيث تؤدى فى النهاية إلى حالة من حالات الفصام الفكرى أو التخبط الثقافى.

ولعل أول آلية لاحظها الباحث داخل هذه الرؤى هى الولع الخفى والمسكوت عنه بالغرب فجلال كشك يعتمد كثيرا على كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب نابليون

فى مصر، ويدعم وجهة نظره بآرائه، أما مصطفى عبد الغنى فيعتمد على بيترجران- الجذور الإسلامية للرأسمالية، أما ليلى عنان فمعظم إن لم يكن كل مصادرها غربية وهى تنهى كتابها معلقة على الحروب الصليبية على النحو التالى (إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل تحطيم الأساطير حتى أتى على أسطورة الثورة الكبرى) وهى آلية تخضع التاريخ القومى للمزاج والهوى الغربى- إن جاز هذا التعبير. فلابد أن نغير مسلمة تاريخية تعلمناها وهى أن الحملة الفرنسية قد أيقظت الشرق من سباته لأن الغرب خرج علينا يوما ليقول لنا إنه أخطأ فى المسلمة التاريخية الأولى التى علمنا إياها، وهو أسلوب فى التفكير يشيع فى مجالات ثقافية متعددة لعل أبرزها التفسير العلمى للقرآن الكريم فيتم ربط النص الثابت بالنظريات العلمية الغربية المتغيرة. وهنا يتم ربط التاريخ القومى وما حدث على أرض الواقع بهوى الباحثين الغربيين حيث تدعم الاتجاه لنقد الحملة الفرنسية بعد أطروحة بيترجران الجذور الإسلامية للرأسمالية.

أما الآلية الثانية فتطلق من مقولة مركزية داخل الخطاب الفكرى للتيار الإسلامى وهى أن المسلمين علموا أوروبا فى فترة من الفترات،وأن عودة هذه العلوم إلينا تكون بمثابة البضاعة التى ردت إلينا.يتضح ذلك من تعداد هذه الأعمال لأسماء العلوم التى كانت موجودة فى مصر قبل الحملة.

أما الآلية الثالثة فهى وضع نموذج غير غربى استطاع اللحاق بالغرب ومقارنته بالنموذج العربى الإسلامى فكشك يرى ضرورة الاقتداء باليابان وتكثر الأعمال المتابعة لهذا الموضوع[122]، مع إهدار لكل سياقات الاختلاف بين الحضارتين. فاليابان مثلا لم تخض حروبا تاريخية طويلة ضد أوروبا كما فعل العرب والمسلمون، واليابان لا تمتلك منظومة ثقافية شمولية لكل أوجه الحياة كالثقافة العربية الإسلامية، والغرب قد سمح مؤخرا لليابان بالصعود مع تقليم أظافرها العسكرية... إلخ[123].

وهناك ظاهرة أخرى امتلأت بها هذه الأعمال وهى الإحساس الطاغى بالهزيمة والانكسار الحضارى والعسكرى أمام الغرب منذ قرنين وعلى اختلاف المراحل الفكرية والتاريخية المختلفة. ويلخصها مصطفى عبد الغنى فى إهدائه للكتاب إلى سليمان الحلبى (فرنسا) وأطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى (إسرائيل) والحملة الأمريكية (أمريكا) وفى مكان آخر يضيف الإنجليز، وهى رؤية تخضع لما يفعله ويقوم به الآخر مع سلبية تامة قد تبدو واقعية على المستوى السياسى من قبل الذات ولكنها مأساوية على المستوى الثقافى والفكرى.

وهناك ظاهرة أخرى أفرزتها رؤية مصطفى عبد الغنى للحملة الفرنسية وهى ظاهرة تردد المثقف وتغيير مواقفه وآرائه خلال فترات قصيرة فهناك رؤية أخرى لمصطفى عبد الغنى عن الحملة الفرنسية وردت فى كتابه تيارات الفكر العربى المعاصر والذى صدر فى عام 2001 [124] فى نفس عام صدور الكتاب الأول (حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية) ومقدمته تمت كتابتها فى عام 1999[125] أى بعد عام من صدور الكتاب الأول على شكل مقالات فى الأهرام.

والكتاب الجديد يتناقض مع الكتاب الأول فى عدة مواضع، فالحملة الفرنسية أصبحت (صدمة التغيير الحضارى التى عرفها المصريون على دوى مدافع بونابرت والتى كانت كافية لا لبحث فكرة المواجهة وإنما لنشأة اضطراب لازم بنية المجتمع العربى طيلة تطوره حتى اليوم، ومهما يكن من آثار الحملة على الشرق فقد خلقت بالنسبة إلى الدور الحضارى أثرا ما مَثّل عمقا لا يمكن تجاهله لمن يحاول رصد حركة الفكر المصرى فى هذه الحقبة)[126]، وهو ما يناقض الرؤية السابقة والتى ترى أن الحملة لا علاقة لها بالتحديث ولم تقم بأى دور حضارى فى وقتها.

وكما اعتمد هو وكشك على الجبرتى فى إيراد أسماء العلوم التى عرفتها مصر قبل الحملة يعتمد أيضا على الجبرتى* لإثبات أن مصر كانت خالية من أى علم مادى قبل الحملة (والعودة أكثر إلى الوراء نرى أن ذلك كان أكثر وضوحا فى العصرين الأيوبى والمملوكى (1196-1517)- يقصد التراجع العلمى والفكرى- ويمضى

فيه العصر العثمانى ويصل أقصاه عند وصول بونابرت إلى أرض وادى النيل عام 1798، فإذا بنا أمام فقهاء أو علماء لا يعرفون أى شىء- كما سنرى- من "العلوم الرياضية، فلا يرونها إلا على أنها من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين") [127].

إذن فمصر كانت هنا غائبة بعكس الرؤية الأولى، ويمتلئ الكتاب وفى أجزاء متفرقة منه بدور الحملة فى إثارة الوعى المصرى والعربى بأهمية التقدم والتحضر وليست بداية لنكبات مصر كلها كما كان يرى من قبل.

كيف يمكن تفسير هذا التناقض...؟ هل يمكن تفسيره من خلال ظاهرة تردد المثقف بين التيارات الثقافية المختلفة فنرى الإسلامى يتحول إلى المعسكر العلمانى أو العكس ولكن هذه العملية تتم خلال فترة زمنية طويلة (طارق البشرى- محمد عمارة- مصطفى محمود.. إلخ). أما أن يتم هذا التبدل فى خلال عام أو عامين فهى ظاهرة لا يمكن ردها إلى تغيير المواقع الفكرية وإنما يمكن ردها فى ظن الباحث إلى السبب الذى دفع مصطفى عبد الغنى إلى تأليف مقالاته التى جمعها فى كتاب (حقيقة الغرب) وهو (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى) فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام معارضا للسائد والمتخلف)، السبب يكمن فى طبيعة الجمهور المتلقى فجمهور الأهرام ومكتبة الأسرة- حيث صدر كتاب حقيقة الغرب- فى معظمه لا يمثل النخبة المثقفة مثل جمهور كتاب تيارات الفكر العربى المعاصر الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، وما كان يمكن فى ظن الباحث أن يكتب سعيد العشماوى كتاباته عن الأوباش والعوام وسفلة الأسافل فى الأهرام وهى ظاهرة تعبر عن الخوف النخبوى من الناس*.

ثالثا: الرؤية الوسط بين النقيضين (الرؤية التوفيقية للحملة الفرنسية)

بخلاف وجهتى النظر المؤيدة/ المعارضة للحملة توجد وجهه نظر ثالثة ترى فى الحملة غزوا عسكريا ولكنها لا ترفض الوجه الحضارى للحملة ولا ترفض الثقافة الفرنسية بصفة خاصة أو الغربية بصفة عامة. ويعبر عن وجهه النظر هذه كتاب نعم

لفولتير لا لبونابرت لأحمد عبد المعطى حجازى، والذى كان هو الآخر عبارة عن مجموعة مقالات تم جمعها ونشرها فى كتاب صدر فى عام 1998[128].

تنطلق وجهة نظر عبد المعطى حجازى من اعتبار فرنسا (حقيقة ثقافية) [129] وتنبع هذه الحقيقة من اعتماد حركة الاستنارة المصرية على تراث التنوير الفرنسى ابتداء من الطهطاوى والذى كان (أول مثقف عربى يقرأ فولتير ويتحدث عنه) [130] مرورا بطه حسين ومنهجه فى كتابة التاريخ والذى تأثر فيه بفولتير وانتهاء بأثر فولتير فى العديد من الأسماء الثقافية فى تاريخنا المعاصر[131]. ويرى المؤلف أن العرب يستطيعون كسب الفرنسيين إلى صفوفهم وخاصة فى ظل الصراع الثقافى الفرنسى الأمريكى الدائر حاليا [132].

ويصف المؤلف الاتجاه الإسلامى الرافض للحملة بالاتجاه (الساذج) [133] والذى لا يعرف التاريخ ويخلط بين الفترات الزمنية (ومع سذاجة هذا الاتجاه وغفلته وخلطه المعيب بين الإمبراطوريات المقدسة والدول القومية وبين الحروب الدينية والحروب الاستعمارية وبين الجهاد فى سبيل النفط والجهاد فى سبيل المسيح، أقول مع سذاجة هذا الاتجاه وخلطه بين الأزمنة والدول والنظم السياسية والأهداف المختلفة، فهو اتجاه رائج يستغل عند عامة الناس نفورهم الطبيعى من الغرب الاستعمارى ويحول هذا النفور إلى عداء مستحكم لكل ما هو أجنبى) [134].

وبالنسبة للاتجاه الوطنى الذى يرفض الحملة لأسباب وطنية فيرى المؤلف أن أصحابه يتمسكون بالعناد الطفولى (وهناك آخرون يقاومون الاحتفال هم أيضا لأسباب عثمانلية كما يفعل الأولون ولكن لأنهم وطنيون مصريون فبوسعنا أن نفهم لغتهم وإن لم نتفق معهم كل الاتفاق. هؤلاء السادة لا يرون فى حملة بونابرت إلا وجهها العسكرى وهذا جحود لا تفرضه الوطنية وعناد طفولى لا ينفى الحقيقة ولا يغيرها) [135].

وعلى هذا الأساس يقسم المؤلف وجهات النظر حول الحملة الفرنسية إلى ثلاثة اتجاهات:

1-اتجاه وطنى متشدد لا يرى فى حملة بونابرت إلا غزوة استعمارية.

2-واتجاه معتدل لا ينكر أن الحملة الفرنسية كانت غزوة استعمارية، لكنه يرى مع هذا أنها ساعدت مصر على اكتشاف نفسها واكتشاف أوروبا .

3-واتجاه آخر لا نملك إلا أن نصفه بالسذاجة، مع علمنا بأنه ضالع فى الجريمة والغ فى الدماء [136].

أما بونابرت فيرى المؤلف أنه اعتمد فى منشوره على الحجج الدينية ليقنع المصريين بحملته على أساس (أن المصريين مازالوا يقيمون علاقاتهم مع كل شىء على أساس العقيدة الدينية كما كان الأمر فى العالم كله طوال العصور الوسطى، أما المصالح القومية التى أصبحت أساسا لكل شىء فى العصور الحديثة فالمصريون لا يولونها أى اعتبار) [137].

ووجهة نظر المؤلف تتلخص فى أن (الحملة الفرنسية لم تكن غزوة استعمارية فحسب بل كانت بها جوانبها الثقافية والحضارية التى بدأت منها نهضتنا الحديثة فى أوائل القرن الماضى وهذه حقيقة أخرى لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل. كان يكفى إذن أن نعلن على الناس أننا نحتفل بالنهضة المصرية الحديثة وبعلاقاتنا الثقافية مع فرنسا، وبالأخوة التى تجمع بيننا وبين جميع شعوب الأرض ولا نحتفل طبعا بالغزوة فلا يبقى سبب واحد يبرر الهجوم على الاحتفال) [138].

تحاول هذه الرؤية إذن أن تجمع ما بين الحسنيين رفض الغزو الاستعمارى مع قبول الحضارة الوافدة، ولكنها فى سبيل تأكيد هذه الفكرة تنفى كل وجهة نظر مخالفة لها، فالتيار الإسلامى يتصف بالسذاجة والتيار الوطنى يتمسك بآرائه فيما يشبه العناد الطفولى وتضع خلافا جذريا بينها وبين الرؤية الإسلامية مما يستحيل معه الحوار معها. على عكس الرؤية الوطنية التى يمكن التفاهم معها وهى رؤية تشطر الوطن إلى شطرين توفيقى- وطنى/ إسلامى وتشطر الغرب إلى شطرين فرنسا/ أمريكا مما يجعلها تقع فى ثنائيات الخطاب التوفيقى التقليدى، والذى تحدث

عنه الكثيرون، وتعتبر امتدادا تاريخيا لرؤية ثقافية قادمة من عصر ما قبل ثورة 1952 عندما تجادل طه حسين والعقاد حول الثقافتين الفرنسية والإنجليزية.

المحور الثالث: الحملة الفرنسية كما يراها الآخر

ترجع أهمية دراسة بيتر جران الجذور الإسلامية للرأسمالية [139] فى اعتماد التيار المعارض للحملة الفرنسية عليها، بالإضافة إلى صدورها عن مفكر أمريكى يسارى. وقد أثارت الجدل فور صدورها فى عام 1979 سواء فى العالم العربى أو فى الدوائر الغربية المهتمة بهذا الموضوع [140].

يرفض بيتر جران منذ البداية اتخاذ عام 1798 بداية للتحديث والنهوض فى مصر [141] * والدراسة تعتمد على أطروحتين أساسيتين:

الأولى: أطروحة اقتصادية ترى أن الهجوم الفرنسى على مصر قد أضر بالطبقات الوسطى المصرية [142].

الثانية: أطروحة ثقافية تركز على الإحياء الصوفى فى منتصف القرن الثامن عشر، كما أنها تتبع سيرة الشيخ حسن العطار كرمز للنهضة الثقافية التى شهدتها مصر قبل مجىء الحملة إليها.

بالنسبة للأطروحة الأولى، يبدأ بيترجران تاريخه للنهضة المصرية فى القرن الثامن عشر بتولى على بك الكبير مشيخة البلد فى عام 1760 [143] وهى الفترة التى أصبح فيها المماليك من القوة بحيث طمحوا إلى الاستقلال بمصر عن السلطة العثمانية من ناحية، وشكلوا نخبة حاكمة قوية من ناحية أخرى، فالطبقة العليا المصرية تشكلت آنذاك من المماليك والموظفين الرسميين وبعض أغنياء المصريين [144].

ثم يرصد المؤلف ملامح الطبقة الوسطى والتى تشكلت من التجار المصريين والعلماء ونخبة الحرفيين [145].

أما الطبقة الدنيا فقد تشكلت أساساً من صغار الحرفيين المتجولين أو أصحاب المهن نصف المشروعة [146].

والمؤلف يرى أن حملة نابليون قد أضرت بتجارة العلماء والتجار من الطبقة الوسطى وخاصة أن نابليون قد حاول أن يتحالف مع هذه الطبقة من خلال قانون التسجيل، وهو القانون الذى اكتسب به نابليون نحو ثلثى أراضى الدولة للطبقتين العليا والوسطى بعد أن كانت الأرض حكراً على المماليك وقلة من المصريين[147].

ولكن سياسات نابليون من خلال الضرائب التى فرضها على المتلكات بمدينة القاهرة بعد هزيمته فى سوريا قد أضرت كثيراً بمصالح الطبقة الوسطى وأصابتها فى مقتل[148].

وهنا يبرز المؤلف دور شرائح الطبقة الوسطى وتحالفها مع نابليون حتى أنها لم تقم بثورتىّ القاهرة الأولى والثانية إلا نتيجة للضرائب المتدرجة ولسلوك الكثير من جنود الحملة الفرنسية المنافى للتقاليد الإسلامية فى رمضان[149]، وعلى الرغم من إبراز المؤلف لدور الطبقة الوسطى ودورها فى التجارة وفى الثورتين فإنه يؤكد فى مكان آخر أن بنية التجارة فى مصر كانت محدودة[150] وأن الشرائح المصرية من الطبقتين العليا والوسطى لم تشكل طبقة تكون قادرة على إسقاط النظام المملوكى فى مصر قبل الحملة الفرنسية (ورغم ذلك بقى النظام حتى العقد الأول من القرن التاسع عشر، فلم تكن هناك طبقة صاعدة من داخل مصر تعمل على إسقاط هذا النظام)[151]، ويرى أن تقدم مصر فى عهد محمد على يرجع إلى (أنه نفسه كف عن أن يكون مملوكاً)[152].

يرسم بيتر جران صورة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى مصر قبل وأثناء الحملة الفرنسية قد تبدو متناقضة فى مواقع كثيرة من هذا العمل، فالصورة تقوم فى الأساس على افتراض وجود طبقة وسطى تتكون من شرائح وتمارس التجارة ولها مصالح اقتصادية واجتماعية وقد أضيرت هذه الطبقة نتيجة للحملة الفرنسية على مصر، ولكنه يناقض هذه المقولات فى مواقع أخرى فالتغلغل الأوروبى التجارى كان موجوداً فى مصر وبصورة ضخمة قبل قدوم الحملة[153]. وابتداءً من عام 1790 تزايدت الصراعات بين المماليك كما تراكمت السلع الكمالية الأوروبية فى السوق

المصرية. وقبل هذا التاريخ شكل التجار الأجانب فى مصر طبقة استطاعت أن تؤثر فى السوق المصرية الداخلية وتعجل بتدهور الطبقة الوسطى المصرية [154] - قبل مقدم الحملة، ولعل تحيز المماليك للتجار الإنجليز على حساب التجار الفرنسيين كان من الأسباب المباشرة للحملة [155] . وعلى الرغم من تأكيد المؤلف بعد كل ذلك على وجود طبقة وسطى مصرية فإنها كانت من الضعف حتى فى حال تحالفها مع الطبقة العليا على إسقاط النظام المملوكى، أما نابليون فهو أحياناً يضر بسياساته الطبقة الوسطى وأحياناً يحاول إنعاشها (لقد حاول نابليون عام 1798 القيام ببعض الإصلاحات ونجح فى تسجيل الملكية الخاصة ولكن ما أن رحل نابليون حتى عادت الفوضى) [156] .

وبالإضافة إلى هذه الصورة التى قد تبدو متناقضة فإن المؤلف يرصد الظروف الاقتصادية المصرية وملامح الطبقات المختلفة فى جزء يقع فى حوالى ثلاثين صفحة من كتابه والذى يبلغ حجمه أكثر من عشرة أضعاف هذا الرقم فى الترجمة العربية [157] .

أما الأطروحة الثانية فى هذه الدراسة فهى أطروحة ثقافية تقوم على رصد المؤلف للصحوة الثقافية والدينية التى شهدتها مصر فى القرن الثامن عشر. يرى المؤلف أن (الإسلام فى مصر يعنى الصوفية) [158] وبالتالى فأى إحياء صوفى يتم فى هذه المرحلة هو صحوة ثقافية. وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف علاقة الطبقات المصرية المختلفة بالطرق الصوفية وإحياء هذه الطرق وخاصة على أيدى أفراد من الطبقة الوسطى كدليل على النهضة الدينية والثقافية التى قادتها الطبقة الوسطى آنذاك [159] .

أما مظاهر هذه النهضة فتتمثل فى الطرق الصوفية بشطحاتها وكثرة الدراويش فيها واعتمادها على الرموز والتأويلات الدينية المغرقة فى (الإشراق والجلاء) [160] و(العرفان) [161] كما يعتبر أن زيارة الأضرحة فى مصر هى البؤرة الثقافية فى النشاط الثقافى آنذاك (وكانت زيارة الأضرحة فى مصر تمثل البؤرة الرئيسية فى النشاط

الفكرى والروحى خلال القرن الثامن عشر، وتدور الكتابات عن الزيارات حول الفضائل الخاصة أو المعجزات التى تغرى إلى زيارة أضرحة معينة) [162].

وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف الصحوة الثقافية خلال تلك الفترة فى الأدب واللغة والتاريخ [163].

وانطلاقاً من رصده للمجالس التى كان يعقدها بعض الأثرياء يربط المؤلف بين وجود هذه المجالس ورغبة الطبقتين العليا والوسطى التجديد فى مجالات الأدب والحديث النبوى واللغة والتاريخ، ويطلق المؤلف على هذه المجالس وصف (المؤسسات الثقافية الحديثة فى مصر) [164].

كما يرصد المؤلف الأعمال الفكرية التى شهدتها هذه الفترة والتى تعبر عن النهوض الثقافى والتى تتمثل فى (الحواشى والشروح والتقارير... إلخ. فقد جاءت كتابات العلماء على هذه الصورة خلال الفترة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر) [165].

ويؤرخ المؤلف لنهاية الصحوة الثقافية الدينية آنذاك بعام 1790 [166]، أى قبل مجىء الحملة الفرنسية أيضاً.

أما بقية الدراسة فتدور حول الشيخ حسن العطار وإسهامه فى النهضة المصرية منذ قيامه بتأليف أول كتاب له فى عام 1786 فى النحو وحتى وفاته فى عام 1835 [167].

هذه الرؤية بخلاف ما يبدو بداخلها من تناقض أحياناً إلا أنها فى الأساس تنطلق من رؤية الشرق كسحر أخاذ وكعوالم مغايرة للغرب، تقترب من الرؤى الاستشراقية التقليدية حينما ترى الإسلام هو التصوف ولا تتوقف أمام التصوف الفلسفى بقدر ما تتوقف أمام الدراويش والأضرحة والأولياء، وهو الأمر الذى رفضته الحركة الإصلاحية فى العالم الإسلامى أثناء وبعد حملة نابليون. وسارت بعد ذلك الحركة الإصلاحية على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده... إلخ، وعلى

هذا الدرب استمر رفض التصوف الشعبى على يد الحركة الإسلامية والتيارات العلمانية والليبرالية بعد ذلك وحتى المشاريع الفكرية العربية المعاصرة أو من يطلق عليهم أحياناً "التراثيين الجدد" أمثال الجابرى وحسن حنفى وأركون.... إلخ تمتلئ أعمالهم بنقد هذا النوع من التصوف والذى أدى إلى إشاعة الخرافة والجهل فى المجتمعات العربية والإسلامية وأخذ أطروحة بيتر جران فى هذا الموضوع يعتبر إهداراً لجزء كبير من الخطاب النهضوى العربى المعاصر.

أما الإشكالية الأخرى التى يثيرها هذا العمل فهى تبنى البعض له كدليل على أن حملة نابليون أجهضت نهضة برجوازية شهدتها مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وفقاً لأسلوب وشهد شاهد من أهلها وربطاً للخطاب الثقافى العربى بتقلبات الخطاب الغربى.

المحور الرابع: الأنـا تقــدم نفسها للآخر: هل يمكن الخروج من التبعية الثقافية للغرب؟!

تعتبر نيللى حنا من الباحثات المهتمات بتاريخ مصر خلال الحقبة العثمانية عبر العديد من الكتب والدراسات والتى ترجم منها حتى الآن "بيوت القاهرة فى العصر العثمانى" و"تجار القاهرة فى العصر العثمانى- سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" و"ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق 16م- ق 18م)" [168] *

ويرى رءوف عباس أن مشروع نيللى حنا يقوم على دحض الأفكار التى روجتها مدرسة الاستشراق التقليدى عن تاريخنا القومى ومجتمعاتنا، والتى ترى أن بلادنا كانت راكدة متخلفة حتى جاء الغرب فى مطلع القرن التاسع عشر لينقذنا مما نحن فيه [169].

ويقوم الكتاب على دراسة ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر. وتؤكد الباحثة فى مواضع مختلفة من دراستها انطلاقها من عدة رؤى:

1-أن دراسة الطبقة الوسطى المصرية خلال تلك الحقبة يؤكد هزل الحديث عن التدهور الثقافى الذى كان يعيشه المجتمع المصرى آنذاك [170].

2-أن إثبات وجود طبقة وسطى منتعشة قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ينقض الرؤية التقليدية، والتى تربط الحداثة والتحديث بالحملة الفرنسية وعصر محمد على [171].

3-تعتمد الدراسة على فكرة المركز والأطراف وتتبنى مقولة بيترجران فى كتابه ما بعد المركزية الأوروبية، والتى يذهب فيها إلى دراسة تاريخ العالم باعتباره تاريخاً اجتماعياً للعالم وليس تاريخاً للمركزية الأوروبية، وبالتالى تطبق هذه الرؤية فى دراستها باعتبار أن الصعود الغربى الذى شهدته حقبة الدراسة لا يؤدى بالضرورة إلى تدهور المراكز الثقافية القديمة (فإنه عندما تصبح بعض المراكز الجديدة بالغة التأثير فلا يعنى ذلك بالضرورة أن المراكز القديمة قضت نحبها أو أنها أصبحت عاجزة عن العطاء) [172]*.

والمركز فى هذه الدراسة يبدأ من رفض المقولات التقليدية عن الصعود الغربى خلال فترة الدراسة وما مثله ذلك من اعتبار الغرب مركزاً ثقافياً يقابله طرف شرقى متخلف، ثم هناك المركز العثمانى وما يقابله من تصور العالم العربى كأطراف تابعة له، وتحاول الباحثة الخروج على الفكرة الاستشراقية التقليدية ولكن عبر تأييدها، فالفكرة الاستشراقية التقليدية تقوم على دراسة العالم العثمانى ككل وكطرف هامشى ومتخلف. وفى مواضع عدة من الدراسة تؤكد الباحثة على وجود ثقافة طرفية عربية متطورة عن الثقافة العثمانية، مما دفع أحد المعلقين على الكتاب إلى التساؤل: (إلى أى درجة كانت مصر عثمانية أثناء الفترة العثمانية؟، أو بعبارة أخرى ماذا كان عثمانياً فى مصر العثمانية. إن هذا الكتاب يقول فى أكثر من موضع وبأكثر من طريقة إن إسطانبول لم يكن لها دور فى تشكيل ثقافة الولايات التابعة لها) وهو ما يستدعى التصور المقابل للطرح السابق (مدى تأثير هذه الثقافة- يقصد ثقافة الطبقة الوسطى- فى محيطها المباشر ثم الأوسع، ومن الممكن أن نتخيل تأثير الطبقة الوسطى فى إسطانبول بمثيلاتها فى القاهرة وحلب ودمشق)[173].

وقد حاولت الباحثة الخروج من الدائرة العثمانية لأن (الدراسات التى تعنى بتاريخ مصر الاجتماعى استناداً إلى مصادر إسطانبول التى تمثل وثائق الدولة فى معظمها وهى دراسات كتبت لغرض معين واضح تماماً، تقدم صورة ناقصة أو مشوهة للمجتمع المصرى فى ذلك العصر) [174].

ويلاحظ الباحث على هذه الدراسة:

1-على الرغم من الجهد المبذول فى دراسة حالة مصر الاقتصادية خلال حقبة الدراسة فإنها تؤكد فى مواضع عدة أن الطبقة الوسطى المصرية التى نشأت نتيجة لانتعاش التجارة آنذاك لم تستطع أن تغير من شكل السلطة المصرية أو أن تدخل فيها، كل ما استطاعت عمله هو إقامة مصالح تجارية مشتركة مع الطبقة الحاكمة [175].

2-تتوقف الدراسة عند العقود الأولى من القرن الثامن عشر باعتبارها فترة شهدت تدهوراً فى الاقتصاد المصرى بسبب قلة الطلب على المنتجات المحلية [176]، و(حول منتصف القرن الثامن عشر كان للمؤثرات السلبية على الاقتصاد انعكاسها على ثقافة الطبقة الوسطى- عندما جرت الرياح بما لا تشتهى السفن- فأثرت سلبياً على القدرات الحركية لتلك الثقافة) [177] أى أن حملة نابليون لا علاقة لها بالجذر الاقتصادى للطبقة الوسطى أو بثقافتها، ويلاحظ أن هيمنة المركز الاقتصادية هى التى جاءت بآثار عكسية على الاقتصاد الطرفى وثقافة طبقته الوسطى، فالسكر المحلى نافسه السكر المنتج فى الأمريكتين وكذلك المنسوجات وهما من الصادرات الرئيسية [178] * .

3-تبرر الباحثة اتجاهها إلى دراسة الطبقة الوسطى وثقافتها وعلاقتها بالثقافة الشعبية عبر العديد من المبررات ولكن ما استوقف الباحث إغراقها فى محاولة رسم طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال تتحرك دراسات الثقافة الأوروبية من ثقافة عظماء الرجال مثل فلاسفة القرن الثامن عشر فى عصر التنوير الفرنسى، وتجاوزت حدود المعرفة والعلم فى المؤسسات

الأكاديمية. وتتجه هذه الدراسات إلى استكشاف القوى الاجتماعية الأخرى وعلاقتها بالقراءة والكتابة والمعرفة والكتب) [179].

وفى مجال القراءة ترى الباحثة أن انتشار القراءة والتعليم فى مصر آنذاك يؤدى إلى تشكيل طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال يذهب المؤرخ الإيطالى كارلو شيبورا إلى وجود علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة والرأسمالية التجارية والحياة الحضرية فى جنوبى أوروبا فى العصور الوسطى)[180].

والغرب هو النموذج الأوحد للحوار سواء عبر قياس تقدمنا الغابر على تخلفه، أو تقدمه على تخلفنا، ففى الفترة التى كان التعليم ينتشر فيها فى العالم الإسلامى كانت البابوية الأوروبية تقف ضد التعليم [181].

وعلى مدى فصل كامل – الفصل الثالث من الكتاب- ترصد الباحثة تأثير الكتب وانتشارها على تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى عبر رصدها لكتالوجات المخطوطات العربية عن الكتب [182] أو قوائم التركات [183] والتى تضمنت قوائم بكتب تركها أصحابها للورثة أو انتشار الورق[184] أو المكتبات العامة [185]. ويلاحظ إعطاء الباحثة أهمية للكتب الصوفية فى أماكن عدة من الدراسة، بالإضافة إلى انتشار الثقافة السمعية التى تنتج عن قراءة فرد لكتاب بصوت جهورى فى محيط من الأفراد [186].

والسؤال: إلى أى مدى تستطيع الثقافة السمعية تشكيل ثقافة ناهضة؟ وهو ما أدى إلى نشأة مجالس ثقافية. وتتساءل الباحثة فى إطار الحوار مع الغرب (هل ينظر المؤرخون إلى هذه المجالس فى سياق التاريخ الثقافى على نحو ما يُنظر إليها فى التاريخ الثقافى لفرنسا وألمانيا، باعتباره مكاناً لتبادل الآراء، ومنبراً للجدل، أم نعتبرها نوعاً من وسائل التسلية؟) [187].

4-بعد أن تقيم المؤلفة بناءً للطبقة الوسطى المصرية يتشكل من الانتعاش التجارى وتعلم القراءة والكتابة وانتشار الثقافة عبر الكتب والثقافة السمعية، تقيم بناءً قيمياً لهذه الطبقة يتماهى مع قيم الطبقة الوسطى الأوروبية وتصورها لمفردات

الحياة، بدءًا من اقتراب إمكانية قيام قيادة من هذه الطبقة (قيادة قريبة من مفهوم "القيادة العضوية" الذى صاغه أنطونيو جرامشى) [188] وانتهاءً بصياغة ثقافة شبه علمانية تهتم بالمال والعادى واليومى [189] وموقف هذه الطبقة من المرأة والثقافة الشعبية واللغة الدارجة [190].

والغريب أن هذه السمات والتى تؤكد المؤلفة أنها كانت بحثاً من قبل أفراد الطبقة الوسطى عن الحداثة الأوروبية لا تتماهى مع الطبقة الوسطى الأوروبية آنذاك والتى أنتجت التنوير والعقلانية على نحو ما حدث فى القرون المماثلة لحقبة الدراسة فى أوروبا، وإنما هى سمات تقترب كثيراً من سمات الطبقة الوسطى المصرية المنهارة حالياً بفعل هيمنة المركز الأمريكى هذه المرة، ولا تقترب حتى من صعود هذه الطبقة الوسطى فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية عندما كان الجاحظ يؤلف فى حرية الإرادة الإنسانية وعلم الكلام بمشكلاته العويصة ويكتب عن الجوارى والقيان والغلمان، فما مدى إمكانية شريحة من الناس تهتم بالمال والأشياء العادية وتتلقى ثقافة دينية محافظة وصوفية وتهتم باللغة الدارجة ومكائد النساء- بتعبير المؤلفة-... إلخ، ما مدى قدرة هؤلاء الناس على النهوض؟ وما مدى اتفاقهم أو اختلافهم عن الطبقة الوسطى الأوروبية، وهو سؤال سكت عنه النص تماماً؟

5- وهناك العديد من الأفكار التى تؤيدها المؤلفة أو تعارضها، فهى تؤكد على وجود ثقافة علمية، وتعتمد على الجبرتى فى ذلك [191]، لأنه يؤكد على وجود ثقافة علمية بما يخدم أهداف الباحثة، ثم تنتقده لموقفه من ثورات العوام والزعر والحرافيش [192]، كذلك هناك نقد للفكرة الاستشراقية التقليدية عن سيطرة الاستبداد الشرقى [193] على مجتمعاتنا أو سلبية الشرق [194]، وعلى الرغم من رصد المؤلفة لأساليب احتجاجية عديدة قامت بها الرعية للاعتراض على السلطة الحاكمة فإنها أساليب لم تفض إلى نتائج جذرية* وتؤكد الباحثة فى موضع بالدراسة على أن الممارسات الاقتصادية للسلطة الحاكمة أدت كثيراً إلى تدهور الطبقة الوسطى (وعندما يتحول تركيز اقتصاد الطبقة الحاكمة إلى

مصالحها الريفية على حساب مصالحها الحضرية، يقل الاهتمـــام بالحفاظ على مصالح تلك الطبقة –تقصد الوسطى– وحمايتها، ومن ثم ينتكس حالها)[195].

وتؤكد المؤلفة على دور الكتاتيب والمساجد فى تطوير ثقافة متعلمة فى (مواجهة ثقافة العلماء، ثقافة تُنسب إليهم ولا تفرض عليهم؟) [196] وهى تعطى أهمية قصوى للكُتّاب فى صياغة ثقافة الطبقة الوسطى [197] بما يشعر القارئ بخطأ الآراء الناقدة للكتاتيب ونظامها*.

6-تنطلق هذه الدراسة كذلك من نقد المركزية الأوروبية، ولكنها فى سعيها إلى ذلك تفتت الأطراف، فالهامش هنا لم يعد الشرق أو حتى الجنوب أو الثقافة العربية الإسلامية، بل يتم تفجير الهامش من داخله إلى مركز وأطراف، وأحياناً إلى ثقافة عاصمة وأقاليم أو حضر وريف، على نحو ما تذكر المؤلفة فى مواضع عديدة من دراستها، وبالتالى هى تسعى إلى تفتيت المفتت أصلاً وإضعاف العاجز بطبعه، وهى رؤية قد تصلح فى حالة القوى والمتكامل والمهيمن فتصلح لتفتيت المركز الأوروبى من داخله، ولكنها لا تصلح فى حالتنا حيث التشظى والطائفية وغياب النسق الثقافى والرؤى الحضارية المتكاملة وربما تأتى بتأثير ما بعد الحداثة الغربية، والتى تعلى من قيم اللامعقول والهوامش والأطراف. ولكن فى ظل اتجاهات راسخة وقوية من عقلانية ونسقية وأفكار كبرى يتم التمرد عليها من داخلها. أما نحن فكيف نعلى من قيم الدروشة الصوفية واللغة الدارجة والاهتمام باليومى؟ ونحن نعانى من هيمنة هذه القيم أصلاً، وهل لأننا فشلنا فى العقلنة والعلمنة والحداثة نعود إلى قيم ما قبل حداثية بدعوى تشابهها مع ما بعد الحداثة الأوروبية لإثبات أننا لم نكن يوماً متخلفين! أم أنها مجرد التبعية المطلقة للغرب الذى قال لنا يوماً إننا كنا متخلفين وأخذنا مقولته بتسليم واعتبرنا الحملة الفرنسية بداية التاريخ وما قبلها من فترة عثمانية لا تعدو أن تكون جاهلية قروسطية، ثم يأتى الغرب ليخبرنا أننا لم نكن يوماً على هذه الدرجة من الجهالة فنصدقه ونلعن الحملة الفرنسية *، ثم ما الضرر فى الاعتراف

بتخلفنا آنذاك أو بتخلفنا المعاصر؟ أم أن المسألة تتعلق بالذات العربية الجريحة التى فشلت فى تحقيق نهضتها وتعانى من التفوق الغربى المستمر فى أشكاله المتعددة.

7-تحاول هذه الدراسة بناءً على ذلك دفع تهمة التخلف والجهل بشتى السبل، ولذلك فهى تقيم حاجزاً فاصلاً ما بين العثمانى والعربى أو المصرى انطلاقا من تركيز الاستشراق التقليدى على التاريخ العثمانى كتاريخ عام للمسلمين، وعلى اعتبار أن لفظ تركى يساوى لفظ مسلم فى المخيلة الغربية بما يرافق لفظ التركى من العديد من الأوصاف والسمات السلبية- لعل آخرها أطروحة برنارد لويس فى كتابه "أين الخطأ؟"- ومع ذلك فالهجوم الأمريكى الأخير على الأمة الإسلامية جاء على تلك الولايات العربية واستثنى تركيا والتى لها علاقات شبه ممتازة مع الولايات المتحدة، وهو ما يؤكد أن تحسين صورة العرب والمسلمين لا علاقة لها بالممارسات الأمريكية الاقتصادية ذات الأقنعة الثقافية. ولن تفلح هذه المحاولات فى تحسين صورة تعرفها دوائر الاستشراق الغربى بمراكزه البحثية ومؤسساته أكثر مما يعرفها المسلمون أنفسهم[198].

الهوامش

(1) السيد يس: الفكر العربى والزمن، أين نحن من نهضة مطلع القرن؟، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس والعشرون، يناير- يونيو، الكويت 1998، ص425.

(2) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط1 1993.

(3) صلاح عيسى: الثورة العرابية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1972، ص41.

(4) طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق القاهرة 1988، ص11.

(5) السيد يس: مرجع سابق، ص426.

(6) مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة الكويت 1999.

(7) طارق البشرى: مرجع سابق ص11.

(8) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص121 القاهرة 1971، الهيئة العامة للكتاب.

(9) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ2، دار الهلال، القاهرة 2001 ص10.

(10) نفسه، ص 9.

* يعدد لويس عوض دوائر اهتمام الباحثين بتاريخ مصر الحديث فى أعقاب 1967 مثل أبحاث: محمد أنيس عن حريق القاهرة، وكتاب صلاح عيسى عن الثورة العرابية، وكتاب فتحى رضوان عن أعلام فترة ما بين الحربين العالميتين.. إلخ (المرجع السابق ص10).

(11) عبد الله شلبى: الدين والصراع الاجتماعى فى مصر (1970-1985) كتاب الأهالى رقم 67 القاهرة 2000، ص33.

(12) نبيل عبد الفتاح: المصحف والسيف مدبولى، القاهرة 1984، ص40.

(13) صادق جلال العظم: نقد الفكر الدينى، دار الطليعة، بيروت ط8 1997، ص97.

(14) محمد عابد الجابرى: إشكاليات الفكر العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1994، ص 133.

(15) السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف والإرهاب فى مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1999، ص51.

* تعتبر أعمال خليل عبد الكريم مثل: "محمد والصحابة" و"الصحابة والصحابة" و"الصحابة

والمجتمع" نصوصا تدور فى هذا الإطار بامتياز، فالكاتب طوال هذه الأعمال يعتبر دخول العرب إلى مصر غزوا وليس فتحا، بالإضافة إلى نقده الشديد للعنصر العربى حضاريا وثقافيا.

*مثال على ذلك: الجدل الذى ثار بين قاسم عبده قاسم ومحمد حسين يونس حول هذه المسألة فى مجلة وجهات نظر- العددان 14، 15، السنة الثانية، دار الشروق، القاهرة 2000.

(16) جلال أمين: نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر، مدبولى، القاهرة 1989، ص 145.

(17) وليد عبد الناصر: الصدام بين عبد الناصر والشيوعيين رؤية جديدة، مجلة أحوال مصرية، العدد 12، القاهرة 2001، ص133.

*يؤكد هذه النظرية العديد من الممارسات فى هذا المجال مثل:

-عبد الباسط عبد المعطى "المحرر" الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، دار ميريت القاهرة ط1 2002.

-سامية سعيد إمام: من يملك مصر؟ دار مصر المحروسة، القاهرة ط3، 2003.

(18) أحمد بهاء الدين: دور الاستعمار فى التخلف الحضارى، مجلد أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى الكويت، ص158.

(19) حليم بركات: المجتمع العربى المعاصر، بحث استطلاعى اجتماعى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1998، ص398.

(20) محمد كامل ضاهر: الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر، دار البيرونى، بيروت، ط1، 1994، ص39.

(21) المرجع السابق ص11.

(22) أودنيس: الثابت والمتحول، بحث فى الإبداع والاتباع عند العرب جـ4، دار الساقى، بيروت ط7 1994 ص46.

(23) المرجع السابق ص47.

(24) نفسه ص29.

(25) ماهر الشريف: رهانات النهضة فى الفكر العربى، دار المدى، دمشق، 2000، ص19.

(26)المرجع السابق ص35.

(27) ألبرت حورانى: الفكر العربى فى عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، جار نوفل، بيروت 1997 ص53.

(28) المرجع السابق ص60.

(29) محمد عابد الجابرى: المشروع النهضوى العربى، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1 1996 ص20.

(30) ماهر الشريف: مرجع سابق ص38 وأيضا ألبرت حورانى مرجع سابق ص52.

(31) حليم بركات: مرجع سابق ص410.

(32) ألبرت حورانى: مرجع سابق.

(33) محمد جابر الأنصارى: الفكر العربى وصراع الأضداد، المؤسسة العربية الحديثة للدراسات والنشر ط1 بيروت 1996 ص72.

(34) على المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط5 1987 ص11.
(35) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث، الخلفية التاريخية، دار الهلال، القاهرة 1994.
(36) نفسه ص19.
(37) نفسه ص20.
(38) نفسه ص20 إلى ص38.
(39) نفسه ص44.
(40) نفسه ص5.
(41) نفسه ص4.
(42) نفسه ص55.
(43) نفسه ص73.
(44) نفسه ص75.
(45) نفسه ص108.
(46) نفسه ص109.
(47) نفسه ص55.
(48) نفسه ص47.
(49) نفسه ص195.
(50) نفسه ص176.
(51) نفسه ص190.
(52) نفسه ص81.
(53) نفسه ص126.
(54) نفسه ص127.
(55) نفسه ص176.
(56) محمد سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة 1999.
(57) المرجع السابق ص34.
(58) نفسه ص41.
(59) نفسه ص55.
(60) نفسه ص55.
*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.
(61) نفسه ص56 إلى ص63.
(62) نفسه ص72.
(63) نفسه ص73.
(64) نفسه ص72.
(65) نفسه ص72.

obeikan.com

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(66) نفسه ص83.

(67) نفسه ص63.

(68) نفسه ص 63.

(69)نفسه ص123-142.

(70)طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية مرجع سابق ص11.

(71)لويس عوض: مرجع سابق ص 126.

(72) المرجع ص156.

(73)نفسه ص132 إلى ص138.

(74)سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، مرجع سابق ص192 إلى 195.

*يعتقد الباحث وانطلاقا من سيناريو تشاؤمى أن الدين مازال يشكل الرابطة القومية لأغلبية المصريين وأن هناك أغلبية تحلم بالوحدة الإسلامية القائمة على الدين حتى من البسطاء وعدم التفاف المثقف الباحث عن النهضة وحدودها وشروطها إلى أغلبية الناس يعبر عن حالة من المثاقفة لن تنتهى.

(75)لويس عوض: مرجع سابق ص68.

(76) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1971.

(77) المرجع السابق ص12.

(78)المرجع السابق ص23.

(79) محمد جلال كشك: مرجع سابق ص45.

(80) نفسه ص46.

(81)نفسه ص33 إلى 53.

(82) نفسه ص35.

(83)نفسه ص88.

(84)نفسه ص88.

(85)نفسه ص92.

(86) نفسه ص92.

(87)نفسه ص249.

(88) نفسه ص252.

(89) نفسه 287.

(90)نفسه ص220.

(91) نفسه ص220.

(92) نفسه ص221.

(93) نفسه ص221.

(94) نفسه ص395.

(95) نفسه ص165.
(96) نفسه ص393.
(97)نفسه ص3.
(98) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية،الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 2001 ص 7.
(99) المرجع السابق ص22.
(100)نفسه ص27.
(101) نفسه ص33.
*يرى جلال كشك أيضا أن الحملة الفرنسية تدخل ضمن الحملات الصليبية وإن كانت تتسم (بقدرة هائلة على النفاق والدجل والادعاء) كشك: مرجع سابق ص145.
(102)مصطفى عبد الغنى: مرجع سابق ص50.
(103)نفسه ص59.
(104) نفسه ص68.
(105)نفسه ص121.
(106) نفسه ص122 إلى 129.
(107) نفسه ص146.
(108) نفسه ص152.
(109) نفسه ص41.
(110) نفسه ص42.
(111) نفسه ص93.
(112)نفسه ص42.
(113) نفسه ص16.
(114) نفسه ص16.
(115) ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، دار الهلال القاهرة 1998، ج1، ص18.
(116) المرجع السابق ص18.
(117) نفسه السابق ص18.
(118) ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ ج2، دار الهلال القاهرة 1998 ص11.
(119) المرجع السابق ص258.
*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.
(120) المرجع السابق ج1 ص16.
(121) نفسه ص17.
(122) مسعود ضاهر النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، مرجع سابق.
(123) رءوف عباس: المجتمع الياباني فى عصر مايجى، دار النشر، ط1، القاهرة 2000.
(124) مصطفى عبد الغنى: تيارات الفكر العربى المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001.

(125) المصدر السابق ص11.

(126) المصدر السابق ص71.

*كل الأعمال السابق الإشارة إليها على مدى هذه الدراسة حولت الجبرتى إلى نص مفتوح قابل لكل التأويلات والاقتباس والحذف.. إلخ، مما جعل ليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير لا تعتمد عليه.

(127)المرجع السابق ص18.

*الأقواس الداخلية تشير إلى اقتباس المؤلف من الجبرتى.

*مع تجاوز نظريات مثل تحلق الجماهير ومداعبتها ودغدغة ما تؤمن به.

(128) أحمد عبد المعطى حجازى: نعم لفولتير لا لبونابرت، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1998.

(129)المرجع السابق ص45.

(130)نفسه ص11.

(131) نفسه ص34.

(132) نفسه ص53.

(133) نفسه ص132.

(134)نفسه ص132.

(135)نفسه ص147.

(136) نفسه ص131.

(137) نفسه ص133.

(138) المرجع السابق ص153.

(139) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة 1993 ط1.

(140)المرجع السابق ص15، 16.

(141) المرجع السابق ص 5.

*يرى أحد الباحثين أن دراسة بيتر جران من الدراسات النقدية الرائدة والتى كان (لها أثر واضح فى إعادة وفهم تاريخ مصر فى العصر العثمانى والعصور اللاحقة، إذ أصبح من الصعب الآن اعتبار الحقبة العثمانية حقبة من الظلام والخمول والتدهور على كافة الأصعدة).. خالد فهمى: كل رجال الباشا محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة ط 1، 2001، ص 34.

(142) بيتر جران: مرجع سابق ص 5.

(143) نفسه ص 38.

(144) نفسه ص 42.

(145) نفسه ص 50.

(146) نفسه ص 54.

(147)نفسه ص 62.
(148)نفسه ص 62.
(149)نفسه ص 62.
(150)نفسه ص 49.
(151)نفسه ص 44.
(152) نفسه ص 59.
(153)نفسه ص 47،46.
(154) نفسه ص 147.
(155) نفسه ص 36.
(156) نفسه ص 22.
(157) نفسه ص 38 إلى ص 66.
(158) نفسه ص 9.
(159) نفسه ص 79 إلى ص 104.
(160) نفسه ص 83.
(161)نفسه ص 85.
(162) نفسه ص 86.
(163)نفسه ص 117 إلى ص 138.
(164) نفسه ص 119.
(165) نفسه ص 12.
(166)نفسه ص 149.
(167) نفسه ص 149.
(168) رءوف عباس من تقديمه لكتاب نيللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية ق16م – ق 18 م، ترجمة رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط1 2003، ص 14.
*الكتاب الأخير صادر باللغة الإنجليزية عن جامعة سيراكيوس بولاية نيويورك- أمريكا.
(169) نفسه ص 13.
(170) نفسه ص 36.
(171) نفسه ص 44.
(172) نفسه ص 37.
*وهى رؤية انشطارية حادة تعتقد بموت ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وبالتالى يأتى تأزمها من وضعها للثقافة بين خيارين إما.. وإما.. ولكى تثور على هذا الخيار التقليدى تبتدع لنفسها رؤية تقوم على فاعلية ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وتحتاج الرؤية التقليدية والرؤية المضادة لها إلى إعادة النظر، فمع إيمان الباحث بهيمنة المركز على الأطراف، فإن ثقافة هذه الأطراف لم تكن فاعلة وحتى الآن وخلال الحقبة التى تدرسها نيللى حنا. ومع ذلك فإن ثقافتها لم تمت ولا يمكن الحديث عن موتها أو تصور ذلك. وهل يمكن الحديث عن موت الثقافة العربية فى ظل هيمنة أمريكية لم تشهدها من قبل؟ وفى المقابل هل يمكن الحديث عن أى فاعلية للثقافة العربية فى الوقت الحالى؟

(173) خالد فهمى: حين كانت مصر تبحث عن الحداثة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الرابع والستون، القاهرة مايو 2004.

(174) نيللى حنا: مرجع سابق ص 48.

(175)نفسه ص 71.

(176) نفسه ص 79.

(177) نفسه ص 61.

(178)نفسه ص 80.

*يعطى الباحث مجرد أمثلة من عشرات غيرها يمتلئ بها الكتاب حول الرغبة فى الخروج على النموذج الغربى مما يؤدى أحياناً إلى التناقض والوقوع فى أسر هذا النموذج وتبعيته مرة أخرى.

(179)نفسه ص 45.

(180) نفسه ص 100.

(181)نفسه ص 94.

(182) نفسه ص 133.

(183) نفسه ص 136.

(184)نفسه ص140.

(185) نفسه ص 142.

(186)نفسه ص 152.

(187) نفسه ص 118.

(188) نفسه ص 113.

(189)نفسه ص 188.

(190) نفسه ص من 188 إلى ص 206.

(191) نفسه ص 34.

(192) نفسه ص 83.

(193) نفسه ص 32.

(194) نفسه ص 221.

*المفارقة هنا أن النتيجة الوحيدة التى أحدثت تحولاً شبه جذرى من قبل ثقافة الطبقة الوسطى إزاء السلطة الحاكمة جاءت من قبل علماء الأزهر التى تنتقد المؤلفة ثقافتهم، حيث استطاعوا بقيادة عمر مكرم تثبيت محمد على فى حكم مصر. ويرى البعض أن هذه الخطوة جاءت نتيجة التأثر بالحملة الفرنسية وأفكارها فى مصر.

(195) نفسه ص 72.

(196) نفسه ص 94.

(197)نفسه ص 73.

*والسؤال ماذا كان يحدث لو استمر نظام الكتاتيب معمولاً به إلى يومنا هذا فى القاهرة والمدن الكبرى؟ وتأتى تلك النظرة من أستاذة تاريخ قاهرية تُدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكتب مؤلفاتها

باللغة الإنجليزية، وفى عام 1980 دخل الباحث إلى كُتاب فى مدينة المحلة الكبرى بزخمها العمالى والثقافى. وعلى الرغم من تطور الكُتاب كثيراً عن الصورة الهزلية التى قدمها طه حسين فى (الأيام) فإن المواد التعليمية فى الكتّاب اقتصرت فى عام 1980 على حفظ قصار السور القرآنية ومبادئ اللغة العربية والعقاب كان يتم عبر الفلقة أو الضرب على الأيدى بخشبة مملوءة بالمسامير.

*يلاحظ انطلاق نيللى حنا من مقولات غربية واعتماد الدراسة فى معظمها وفى أفكارها الأساسية على المصادر الغربية.

(198)يمكن الرجوع بخصوص هذه النقطة إلى:

جلال أمين: عصر التشهير بالعرب والمسلمين.. نحن والعالم بعد 11 سبتمبر 2001، دار الشروق، القاهرة ط1 2004.

- عام 1798 ميلادية وهو عام قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر.

❊ ❊ ❊

obeikan.com